الفصل الخامس

المرأة البطل
نماذج المرأة البطل فى السير الشعبية

من أكثر الظواهر لفتا للنظر فى السير الشعبية العربية، الدور الذى تقوم به المرأة فيها من ناحية الكم والكيف معا، فمن ناحية الكم تزدحم السير الشعبية العربية بنماذج من البطولات النسائية يفوق الحصر. ومن ناحية الكيف فإن هذه النماذج تتأرجح درجة بطولاتها بين أدنى درجات البطولة حتى أعلاها، عندما تتساوى مع النموذج البطولى للرجال.

ومنذ البداية فإننا نقول «المرأة البطل» ولا نقول «المرأة البطلة» لأن البطولة فى السير الشعبية لها مفهوم واحد وإن اختلفت درجاته، سواء كانت البطولة تتعلق برجل أو بامرأة. فالبطولة فى السير الشعبية هى البطولة القتالية أو بطولة النزال، أو هى على أقل تقدير المشاركة الفعالة فى الأعمال القتالية.

ونود الآن أن نقدم نماذج مختلفة من المرأة البطل فى السير الشعبية، فنقارن بينها، ونرى فاعليتها على مستوى بناء السير، ثم دلالتها على مستوى البناء الاجتماعى.

النموذج الأول:

ويحكى عنه البطل عبد الوهاب ابن الأميرة ذات الهمة، للخليفة هارون الرشيد فيقول: «يا أمير المؤمنين، اعلم أنه قريب منا بستة أيام جبل يقال له الشامخ، وخلفه حصن قد نقر فى الجبل، دارت به الأشجار والأنهار وقد أحدقت برياضه سائر الأفنان، والماء يدخل ويخرج من داخل الحصن وهو ينبع من صخرة.

وفى هذا الحصن امرأة، وهى من أحسن الناس وجها، وأطولهم قدا، وأقعدهم نهدا، يقال لها القناصة ابنة مزاحم. وقد ضربت غاراتها فى البلاد، وشتت بقومها العباد، وأيتمت الأولاد، وتحت يدها خمسة آلاف فارس. وقد انضاف إليها كل طامع من العبيد. ومع ذلك فإنها إذا وصف لها فى أى البلاد شاب مليح جميل الصورة تسير إليه بنفسها، وتأخذه قهرا، وتقوده كرها، وتسير به إلى حصنها، وتتزوج به ثلاثة أيام، فإن كان فى اليوم الرابع ترفعه إلى أحد الأبراج وتضرب رقبته».

وعندئذ قرر أبطال السيرة وعلى رأسهم ذات الهمة وابنها عبد الوهاب والبطال الخروج لقتال القناصة، ليخلّصوا الناس من شرها. ولكن القناصة كانت أشد منهم قوة، وأعرف منهم بفنون المصارعة والمبارزة. وظلت ذات الهمة ترقبها من بعد وهى تصارع الأبطال وتطرحهم أرضا. وعندئذ انضمت إلى الأبطال حتى ترجح كفتهم على كفة القناصة. فلما رأى أصحاب الحصن إلى هذا الفعل

الفظيع والحال الشنيع قد حل به، ألقوا العدد من أيديهم وصاحوا الأمان، فرفع عنهم الأمير عبد الوهاب السيف، ولم تكن شيمته ظلم أو حيف .. واحضروا إلى الأمير القناصة وكانت أحسن زمانها، فخطبها من نفسها، وتزوج بها فى الحال، وتولى عقد نكاحها البطال، فلما دخل بها الأمير وجدها بكرا كما خلقها ربها. فبقى الأمير متعجبا من أمرها، فعلمت ما فى نفسه، فقالت له: أيها الأمير، أتظن أنه قد خطر ببالك الذى سمعته عنى، وأنى قد تزوجت بجماعة من الرجال ثم أضرب منهم الرقاب؟ فقال الأمير: قد سمعت ذلك. قالت، كنت إذا سمعت ببطل من الأبطال، أطلبه إلى أهله أو آخذه قنصا من الميدان، أو بالطعن أو بالسنان، فإذا تزوجت به وخلوت معه، أتذكر ما كان من أمره، وكيف أسرته، فتنفر نفسى منه على أنى أكون له أهلا، ويكون لى بعلا. فأمنع نفسى، وأضرب عنقه، حتى لا يرجع إلى أهله ويحدثهم بما كان منى .. وأقام الأمير عبد الوهاب عندها فى أرغد عيش. (السيرة جـ٢ ص ٢٤ ـ ٢٦).

فهذا نموذج للمرأة البطل. ولكنها بطلة خارج ميدان القتال، حيث تدور رحى الحرب بين العرب والروم وهو موضوع السيرة الأول. ومن ثم فإن وظيفة البطولة فى هذا النموذج لا تتفق مع وظيفة البطولة فى السيرة، حيث تتحدد البطولة بالقدرة القتالية على قهر العدو بالنسبة لكل طرف من الأطراف المتحاربة.

أما وظيفة البطولة فى هذا النموذج فتتحدد باقتناص الأبطال من الرجال، ومن ثم سميت «القناصة»، دون أن تتحدد هويتها بأبعد من

ذلك. وربما كانت القناصة فى عالم النساء تمثل المعادل الموضوعى للملك «شهريار» فى عالم الرجال مع اختلاف الدافع. فكما كان شهريار يتزوج من امرأة يقع اختياره عليها ثم لا يلبث أن يقتلها، فإن القناصة تقتنص من يروقها من الرجال وتأخذهم فى حوزتها ثم ماتلبث أن تمكنهم من نفسها. وكما فازت شهرزاد فى النهاية بالملك القاتل، فاز عبد الوهاب بالقناصة قاتلة الرجال.

والخلاصة أن هذا النموذج البطولى للمرأة تنتهى بطولته بالوقوع فى أسر حب الرجل البطل، أى أن بطولتها تدور فى فلك الرجال ومن أجل الرجال.

النموذج الثانى:

وهو نموذج للمرأة البطل التى تتقن فن القتال وتمارسه من أجل المصلحة التى تحددها الجماعة. ومثل هذا النموذج كثيرا ما يرد فى صف القوتين المتحاربتين. ونحن نتمثل لهذا النموذج البطولى بالملكه زنانير ملكة الروم فى سيرة الأميرة ذات الهمة. وعلى الرغم من ظهور هذا النموذج فى كثير من السير، فإن نموذج الملكة زنانير التى خصتها السيرة بمجلد أو أكثر، يقدم لنا فرصة واسعة للتحليل، كما سنرى فيما بعد.

ففى أثناء صراع قبيلة بنى كلاب من الروم، دار الصراع بينها وبين أحد ملوك الروم هو الملك «صلبوتا» صاحب الحصون والقلاع المنيعة، وكان من عادة جيش بنى كلاب أن يرسل سرية تستطلع

لهم الأمر قبل أن يقوموا بالغزو، وقد كان من بين أفراد السرية فى هذه المرة محارب بطل يدعى لؤلؤاً. واستطاع لؤلؤ أن يدخل قلعة الملك صلبوتا خلسة متنكرا، وما لبث أن اختلط بالروم وتزىّ بزيهم. ولما كان يعرف لغتهم فقد تظاهر أنه يتجسس لحسابهم بين أبطال المسلمين. ثم ذاع صيته وقرّبه الملك إليه، وجعله يدخل ويخرج فى القلعة بدون حرج. وسرعان ما نشأت العلاقة بينه وبين ابنته الملكة زنانير. ولما توطدت العلاقة بينهما، كشف لها فيما بعد أنه جندى مسلم هارب من جيش الأمير ذات الهمة، وأنه يبغى البقاء فى بلاد الروم دون أن يغيّر دينه.

وأعجبت به الملك زنانير وأحبته مع بقائه مسلما. ولما توفى الملك اعتلت زنانير العرش وأصبحت مسؤولة عن قيادة جيشها. وظلت زنانير ترقب لؤلؤا، إذ ساورها الشك فيما إذا كان يحارب فى صف المسلمين أم فى صفها. أما من ناحية لؤلؤ، فقد تظاهر بأنه كان يحارب فى صفها. وهو فى الحقيقة كان يتجسس لصالح جيش الأميرة ذات الهمة، فقد نقل إليهم من الأخبار ما ساعدهم على إخضاع بعض ملوك الروم الآخرين، الذين مالبثوا أن انضموا إلى المسلمين معلنين إسلامهم، مما أضعف من شوكة جيش الملكة زنانير فى مواجهة جيوش المسلمين.

وأخذت معالم الإسلام تضييق الخناق على الملكة زنانير، فقد شيّد المسلمون جامعا فى البلد القريب منها، الذى كانوا قد احتلوه، وكان صوت الأذان يرن فى مسمعها فى كل لحظة. ولؤلؤ مازال على إسلامه، على الرغم من تأكدها من حبه لها.

وعندما وجد المسلمون الفرصة سانحة لمحاصرة قلعة الملكة زنانير، قاد جيش المسلمين أبو محمد البطال، واشترك معه فى القتال ملك رومى كان قد أعلن إسلامه. قال له محمد البطال: أيها الملك، قد أديت ما يجب عليك من فرائض الإسلام، وأرضيت الملك العلام، وقد وجب عليك الجهاد فى طاعة رب العباد، ليكون لك عند الله المنزلةالعظيمة».

فقال الملك: يا أبا محمد، والله لأغزون حتى أفتح القلاع كلها وأسلمها إلى المسلمين إن شاء الله تعالى رب العالمين. فقال أبو محمد لله درك، فما أصدق لسانك وأقوى جنانك. وهذا هو الصواب، والأمر الذى لا يعاب.

وقد بلغنا أن صلبوتا مات، وقد بقى الحصن والقلعة مع ابنته زنانير، وهل هى إلا ضلع أعوج وعقل أهوج؟» (جـ٢٥ ص ١٨، ط. عبد الحميد حنفى).

وعندما تكالبت جيوش المسلمين على حصن الملكة زنانير، أرادت أن تستغل حب لؤلؤ لها فى القبض على محمد البطال، الذى كان قد دوخ جيوشها بحيله.

ولهذا فقد أطلقت سراحه بعد أن كان محدد الإقامة. فكان أول ما فعله لؤلؤ أنه ارتدى زى جنود الروم على سبيل الإيهام والخداع ثم توجه إلى القبلة وناجى ربه وهو يقول: «اللهم يامن هو الأول

الذى ليس قبله شئ، والآخر الذى ليس بعده شئ .. انصر عصابة الإسلام، وثبت عزم الأمير أبى محمد البطال، وافتح على يديه، وتمم له ماقد أنعمت عليه، وخلصنى أنا من عشق هذه الجارية زنانير، إما بإسلامها أو بموتها، أو بموتى حتى لا ألقاك وأنت علىّ غضبان» .

ودخل عليه محمد البطال وسمع مناجاته، وتأكد من إيمانه، وقال له: «أنا قد جئت أعمل حيلة حتى أسلّم هذه القلعة للمسلمين إن شاء الله تعالى. وعليك أن تشملنا بعنايتك يا لؤلؤ، لأنك اليوم الحاجب الخاص والآمر الناهى. وإياك إن أنت أبطلت علينا ما نعمل. فقال لؤلؤ: يامولاى، معاذ الله أن أبطل عليك ما تعمل، وكيف لى بذلك؟ ولكن لؤلؤا كان له مطلب فى مقابل هذا. قال لأبى محمد البطال: ولكنى أريد منك عهدا ياسيدى، إن نحن أخذنا الملكة زنانير، تكون لى، ولا يزاحمنى فيها أحد، فحلف له بالأيمان الثقال على ما أشار إليه» .

واستعد الجيشان: جيش المسلمين ومن انضم إليهم من الروم، وجيش زنانير وتقابلا فى معركة كبيرة فقدت فيها زنانير عددا غفيرا من رجالها. فلما وجدها لؤلؤ حزينة لما حدث، قال لها: أيتها الملكة، أريد أن أقول لك ولا تغضبى منه، فإن قبلتيه فلا تكافئينى عليه إلا بشريف الأفعال.. إن جيوش الروم يقتل منهم مقتلة عظيمة فى كل

يوم، فإذا دخل المسلمون دياركم، مابقى لكم منهم محيض. وسوف يملكون منكم القلاع. والرأى عندى أنك تسلمين وتفوزين بدين الإسلام، وتبلغين جميع المرام. فلما سمعت زنانير كلام لؤلؤ تغير لونها، واضطرب كيانها، وقالت: يالؤلؤ، لقد واجهتنى بشئ عظيم، ولولا أنك عندى كريم لتركتك كالرميم. وكما أنك يصعب عليك مفارقة دينك، كذلك يصعب علينا مفارقة ديننا. وكما تقولون إنكم على الحق والصواب، كذلك نقول إننا على الصواب، فلا تضرب فى حديد بارد، وفى غد أوريك ما أفعل بأبطال المسلمين، وكيف أتركهم فى القيود والأغلال مصفدين». (السيرة جـ٢٦ ص ٢٩).

وعندئذ طلبت زنانير المبارزة، وكان كلما خرج لها بطل من أبطال المسلمين أردته قتيلا، فقال لؤلؤ لعبد الوهاب: «ولله ليس على وجه الأرض مثل هذه الجارية فالله تعالى يظفرك بها أيها الأمير» (جـ٢٦ ص ٣٢). ولما لم يبد عبد الوهاب منتصرا عليها، خفت الأميرة ذات الهمة لنجدته، وطلبت مبارزة زنانير وماهى إلا لحظة حتى كانت زنانير قد وقعت أسيرة فى قبضتها، وفى اليوم التالى دخلت عليها الأميرة ذات الهمة فوجدتها فى أكمل زينة من الملبوس، وهى تتجلى كأنها الطاووس، وقالت لها: أتظنين أنك فريدة دهرك، ووحيدة عصرك، فلولا أن جواد الأمير عبد الوهاب عثر به، لكان سقاك من الموت أمر شراب. فاسلمى تسلمى، فلما تجبها

زنانير بجواب، ولا ردت عليها خطاب، وهى فى بكاء وانتحاب». (جـ٢٦ ص ٣٣).

وعند ذاك أمرت ذات الهمة بحمل زنانير إلى خيمتها، ووكلت بها من يحفظها، وعندما علم لؤلؤ بذلك، جن جنونه، وأصر على إطلاق سراح زنانير خلسة، فسرقها وصعد بها إلى القلعة.

ولما استيقظت ذات الهمة فى الصباح، لم تجد زنانير، فقال لها البطال: «ماهذه الفعلة إلا من لؤلؤ. ثم أرسل إليها يقول له: يالؤلؤ أنت خلصت الملكة زنانير، وأنت تعلم أنها قد أسرت أبطال المسلمين، وهذه عساكر الروم قد وردت فى هذا اليوم، فكما عملت فى خلاصها، أعمل فى خلاص المسلمين حتى تكون قد فعلت ما يرضى الله. ولما وصلت الرسالة إلى لؤلؤ قال: والله لقد صدق مولاى. ثم إنه صبر حتى وجد من الملكة غفلة وأتى إلى موضع المسلمين وأطلقهم».

وبينما كان لؤلؤ عند زنانير، إذ بحاجبها يدخل عليها يبشرها بوصول عقبة، رمز النفاق فى السيرة، وكان ينافق كلا من الطرفين، العربى والرومى معا.

وسعدت زنانير بوصوله، أما لؤلؤ فقد بدا عليه الضيق والغضب، وجعل يقول شعرا يقسم فيه عليها بحبه لها أن تتخلص من هذا اللعين. قال:

بحـــق الهـــوى بـــزمـــان الـرضـــا
بـوقـت الســرور بيــوم الفــرح
أزيلـــى المنغـــص مـــن بيتنـــا
فقـــد نالـــنى مـــنه كـــل التـــرح
فللـؤلـؤ قـــد صـــار فـــى حبـــكـم
كئـيـبا وزاد بـــــه فـافتضـــح
بحـــق العتـــاب أزيلـــوا العنـــا
بحـــكم المـــدام بشـــرب القـــدح
خـــذوا كـــل كـــلب لكـــم بالعصـا
ولا تـــرحمـــوه إذا مـــانبـــح
فخلقتـــه مثـــل وجـــه القـــرود
ولهجتـــه مثـــل كلـــب نبـــح

ولما وجد لؤلؤ أن زنانير لم تستجب له، وظلت تقرب عقبة إليها، تزايد حنقه عليها، وقرر أن يلعب دورا سريا فى تقليب ملوك الروم عليها.

وهنا تبدأ السيرة فى الهبوط ببطولة زنانير تمهيدا لإنهاء دورها البطولى على نحو يتفق مع بناء السيرة.

فقد اندحرت أمام جيش الملك الرومى الذى انضم إليه لؤلؤ ضدها. وفى الوقت نفسه كان جيش المسلمين قد لم شمله لمواجهتها مرة أخرى. ولم تجد أمامها سوى لؤلؤ لتبوح له بمخاوفها،

وقالت له: إن عسكر المسلمين قويت شوكتهم، ولم يبقى لى من عسكرى إلا شرذمة يسيرة، وإنى أخشى على نفسى منهم».

وكان كلما ضعف موقف زنانير، قوى موقف لؤلؤ، وأصبحت أكثر إصغاء إليه.

وفى النهاية قالت له: «الصواب عندى أننى أصحبك إلى بلاد الإسلام وأفارق مالى وملكى فى هواك». وخرجت زنانير مع لؤلؤ متخفية ومتوجهة إلى جيش المسلمين. وشاع خبر غيابها، فقال الناس:

«إن الملكة زنانير عشقت رجلا مسلما، وأخذها وخرج معها إلى بلاد الإسلام».

ولكى تجعل السيرة زنانير تطمئن إلى ما فعلته، جعلت الرسول عليه السلام يزورها فى المنام ويباركها، ويخبرها بأن الله الذى تعبده هو الذى خلق إبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا. هو الله الرب العظيم. واستيقظت زنانير منشرحة الصدر وقصت رؤياها على أبطال المسلمين فسعدوا بها، وكان هذا بمثابة الصك الأخير لانتمائها لجيش الأميرة ذات الهمة، واحتفل الجميع بزواجها من لؤلؤ.

وبهذا تنتهى قصة زنانير التى استغرقت من السيرة مجلدا كاملا.

وإذا كنا قد وجدنا أن النموذج الأول للمرأة البطل لم يؤد دورا أساسيا فى بناء السيرة، اللهم إلا إذا كان مجرد تأكيد لبطولة الصد

عبد الوهاب، فإن النموذج الثانى للمرأة البطل يعد جزءا أساسياً فى بناء السيرة.

فالبطلة زنانير تمثل مع جيشها أحد طرفى القوتين المصارعتين، كما تمثل ذات الهمة مع جيشها الطرف الآخر. وبين هذين الطرفين المتعارضين يقف لؤلؤ بانتمائه لكلا الطرفين، ممثلا الوسيط الذى عليه مهمة التقريب بين الطرفين، حتى يحدث دمج أحد الطرفين فى الطرف الآخر، أو لنقل بالتعبير الحربى، حتى يستسلم أحد الطرفين للطرف الآخر.

على أننا لا يهمنا فى هذا المجال الحدث فى حد ذاته، بل يهمنا أن ننظر فى نموذج المرأة بالقياس لغيره من نماذج البطولة النسائية من ناحية، كما يهمنا أن ننظر إلى ما يحققه كل نموذج فى إطار البناء العام للسير وهدفها من ناحية أخرى. وهذا مانرجئ الحديث عنه الآن، حتى نفرغ من تقديم النماذج الأخرى للمرأة البطل.

النموذج الثالث:

وتمثله بحق فى أوضح صورته الجازية فى السيرة الهلالية. وليست الجازية امرأة محاربة شأنها شأن النمطين السابقين، إذ لم يحدث أنها تزينت فى زى البطل، أو أنها قادت الجيوش، وإنما ترجع بطولة الجازية إلى قوة شخصيتها. فهى صاحبة الكلمة الصائبة عندما يختلف القوم، وهى قادرة على أن تستحث الهمم كلما أصابها الوهن.

ولهذا حرص بنو هلال على أن تكون الجازية بصحبتهم فى تغربيتهم بعد أن كانت قد استقرت فى مكة مع زوجها الشريف بن هاشم. وعندما قسمت المناصب بين أبطال بنى هلال، فكانت السلطة لحسن الهلالى. والأحكام القضائية لبدير بن فايد، والأعمال القتالية لأبى زيد، لم ينس الزعماء أن يمنحوا الجازية ثلث المشورة.

وبهذا الحق الذى اكتسبته الجازية، وفقا لتشريع زعماء القبيلة، كان يحق لها أن تتدخل فى الوقت الحاسم بمشورتها، وعندئذ يوضع رأيها موضع التنفيذ.

كما أنها أعطت نفسها الحق فى أن تسخر من الأبطال إذا ما ضعفت قواهم، حتى تستثير هممهم.

فقد حدث على سبيل المثال، أن أشارت الجازية بأنه لن يقتل الزناتى خليفة إلا دياب بن غانم. وعندئذ خف الجمع لاستدعائه. ودارت المعركة بين دياب بن غانم والزناتى خليفة، ولكنها لم تسفر عن نتيجة محققة. وعندئذ اتهم غانم ابنه بالعجز، ودافع دياب عن نفسه بقوله: يا أبى: أنا وأنت غلبنا منه واحترنا فى أمره، لأنه مافيه منفس خال من الزرد، كأنه سد من حديد من أعلاه إلى أسفله».

وسمعت الجازية كلام دياب، ولم تعجبها تعلاته، وعندئذ انبرت تقول الشعر الذى تحث فيه النساء على الاستعداد للقتال بدلا من الرجال. فما أن فرغت الجازية من شعرها حتى رد عليها دياب قائلا: ياجازية، أنا للزناتى كفية وحق رب البرية».

وتقوم سعدة بنت الزناتى خليفة فى قومها الزناتية مقام الجازية فى قومها الهلالية وإن لم ينص على أن لها ثلث المشورة مثل الجازية. فقد كانت تتدخل بين الحين والآخر لتحسم موقفا مختلفا عليه بين الزعماء، كما حدث عندما خلد علام الزناتى إلى الراحة بعد أن نصب زعيما للزناتية بعد مقتل الزناتى خليفة، فقد أخذت تستحثه بكلامها الحماسى حتى نطق فقال:

«ياسادات العرب، أنا كنت من قبل هذا نهيتكم عن قتال هؤلاء الأقوام، والآن والله كلام سعدة قطع أمعائى، وذكرنى بالمودة والصحبة التى كانت بينى وبين أبيها»:

لقد كانت كل من الجازية وسعدة موظفة فى السيرة الهلالية لتكون فى خدمة قبيلتها، إن سلما أو حربا. ولكن على الرغم من قوة شخصيتى الجازية وسعدة، ومكانتهما فى قومهما، فإن زعماء كل طرف كانوا يعطون لأنفسهم الحق فى استخدامهما كوسيلة للمساومة على السلم أو الحرب مع الطرف الآخر. بل إنهم كانوا يوظفون إغراءاتهما الأنثوية فى تدبير المكايد أو الإيقاع بالرجال فى شركهما.

ففى رسالة أرسلها السلطان حسن إلى الملك الصمصام الذى كان يتهددهم فى أثناء إقامتهم فى نجد، قال له:

والجازيـة لـو نظـرت لحسـن غـرتـهـا
عقلك غـدا منك راح اليوم مذهـوبا

كما أن زواج الجازية من الشريف بن هاشم كان من أجل صالح قومها. ثم عرضت على علام الزناتى فيما بعد لكى يتزوجها فى مقابل السلام، ولكن العلام رفض، وبالمثل عرض الزناتى خليفة على دياب أن يتزوج سعدة فى مقابل أن يصنع سلامه، ولكن ديابا رفض.

النموذج الرابع:

وربما لم يكن هناك نموذج للمرأة البطل ترد سيرتها مكتملة فى السير الشعبية منذ مولدها بل ربما قبل ذلك حتى وفاتها، كما حدث للأميرة ذات الهمة فى السيرة المعروفة باسمها. وإذا كانت الأميرة ذات الهمة تشارك المرأة البطل فى النموذج الأول والثانى فى البطولة القتالية، كما تشارك الجازية بصفة خاصة فى قوة الشخصية وحسن المشورة، فإن ذات الهمة تجب النماذج السابقة فى البطولة وقوة الشخصية وحسن الرأى. فإذا أضفنا إلى هذا أن ذات الهمة لم تعرف عشرة الرجال قط. إذ أنها تركت زوجها الحارث إثر دخوله بها عن طريق الخدعة، كما أنها لم تكن بعد ذلك مطمعا للرجال، وإن حظيت منهم بكل تقدير وتبجيل، استطعنا أن نقول إن نموذج بطولة الأميرة ذات الهمة قد رسم على نحو خاص، بل على نحو مقصود ومتعمد.

وتبدأ قصة الأميرة ذات الهمة مع بداية السيرة، كما أنها تنتهى بنهايتها.

ولا غرو بعد ذلك أن تصبح السيرة سيرتها، وإن كانت فى الوقت نفسه سيرة قبيلتها، بل سيرة العرب فى حقبة من حقب التاريخ. أما الأبطال الآخرون الذين برزوا فى القتال فى السيرة على نحو لا يختلف قط عن أبطال السير الأخرى، فقد كانوا منضوين تحت لوائها، وخاضعين لمشورتها.

وقد حرصت السيرة على أن تضرب بجذور الأميرة ذات الهمة إلى عمق تاريخى كاف لإثبات أصالة بطولتها، فهى بنت مظلوم بن الصحصاح بن جندية بن الحارث الكلابى، وكل هؤلاء كانوا أبطالا. كما حرصت السيرة على أن تكون مراحل تكوين شخصيتها ممثلة كل التمثيل لمراحل تكوين شخصية البطل النموذجى فى الآداب الشعبية. ففاطمة بن مظلوم ـ أو ذات الهمة كما سميت فيما بعد ـ وقع عليها الظلم منذ طفولتها، بل قبل أن تولد، وإذا كان الأدب الشعبى يربط بين الاسم والشخصية، أو بين الاسم ووظيفته على نحو صريح، فإن والد فاطمة سمى مظلوما لأن النبوءة أخبرت أمه قبل ولادته بأنه سيولد لها ولدان، أكبرهما سيوقع الظلم بالآخر، فلما ولدتهما سمت الأم الابن الأكبر ظالما وفقا للنبوءة، كما سمت الأصغر مظلوما.

وهكذا قدر لفاطمة أن تولد من الظلم. وهذه هى اللبنة الأساسية الأولى فى بناء البطل الشعبى الملحمى.

أما اللبنة الثانية فتتكون عندما يبعد الطفل غير مرغوب فيه عن أهله، ولقد أبعدت الأميرة ذات الهمة عن أهلها إثر ولادتها. فقد

كان الأخوان ظالم ومظلوم قد اتفقا على أن تكون الإمارة من بعدهما للابن الذكر الذى يولد لأى منهما، فإذا ولد لهما ابنان ذكران قسم الإمارة بينهما. وكانت المفاجأة عندما ولد لظالم ابن ذكر وولد لمظلوم ابنة. وعندئذ أخفى مظلوم نبأ ولادة ابنته وسلمها إلى المرضعة سعدى لترعاها، وطلب منها ألا تكشف سرها لأحد، بل لا تكشف للابنة نفسها حقيقة نسبها عندما تكبر.

وكبرت ذات الهمة واشتد ساعدها، وظهرت عليها إمارات البطولة، كما يحدث مع البطل النموذجى، ثم نما إليها موضوع إبعادها عن أهلها وحقيقة نسبها فيما بعد. وعندئذ أصرت على الانتقام من عمها. وكان من الطبيعى أن ترفض الزواج من ابن عمها وهى تكن له ولأبيه البغض. ولكن العم كان مصرا على أن يتمم زواجها من ابنه. وقال معربا عن وجهة نظرة فى هذا الإصرار. «وقد عزمت على أن أزوجه (أى ابنه) بها لوجهين: الأول لجمالها، والثانى لأنها إذا صارت له انكسرت عزمتها وقل نشاطها، وذهبت قوتها، وبانكسارها نحن نبلغ من أبيها سائر الأغراض».

ولكن ذات الهمة لابد أن تنتصر على الظلم وفقا لبناء البطل الملحمى. فعلى الرغم من أن ابن عمها دخل بها، وعلى الرغم من أنها حملت منه، فقد قررت ذات الهمة أن تهجره، فلما ولدت ابنها وكان أسود، وجه إليها ابن عمها آخر سهم فى جعبته عندما طعن فى بنوة ابنها عبد الوهاب لسواد لونه. وأصرت ذات الهمة على إثبات

براءتها. فلما تحقق لها ذلك قررت أن تهجر بلادها، وأن ترحل إلى منطقة الثغور التى كانت على الدوام منطقة حرب وقتال بين العرب والروم، لتقوم بواجب الدفاع فى سبيل الله والوطن.

وبهذا تكون ذات الهمة قد اجتازت طقس العبور الثانى، الذى يبدأ بتعرفها إلى أهلها، وملاحقة القوى الشريرة لها، ثم نجاحها فى الهروب منها.

ويبقى بعد ذلك، استكمالا لشخصية البطل الملحمى، أن تنجح ذات الهمة فى اختبارات القدرة على الأعمال البطولية على مستوى أكبر بكثير من المرحلة السابقة حتى تخلص قومها فى النهاية من القوى الشريرة التى تتهددهم على الدوام.

نماذج المرأة البطل وبناء السير الشعبية:

من الواضح أن الأميرة ذات الهمة هى النمط الفريد الذى لم تستغل فى السيرة فى علاقات جنسية، ولهذا تنتفى عنها لغة الإثارة الجنسية، على عكس ما يحدث بالنسبة للبطلات الأخريات. بل كان يشير إليها على الدوام بمثل العبارة التالية:

«الأميرة المجاهدة ذات الهمة، قاهرة الأقران، وقناصة الشجعان، ومبيدة الفرسان، المجاهدة فى طاعة الرحمن». فإذا وضعتها السيرة فى معركة القتال، تشكلت من هذا الوصف الصورة التى تمثل مفهوم البطولة بوجه عام. «فدعت الأميرة بحصان أحمر أغر محجل، كأن قوائمه قد وضعت فى قالب من حديد، فقدم إليها وقد أفرغت عليه درعها ولبست لأمة حربها، واستوت على ظهر حصانها، وخرجت

إلى ميدان حربها، ونادت: يا آل كلاب ياحزب الملك الوهاب، هلموا إلى عدوكم، وصابروا إلى ربكم، وافعلوا الخير لعلكم ترحمون».. (السيرة حـ ٢٨ ص ١٥). «ثم تمطت الأميرة فى كتافها وقد قطعته، ووثبت إلى بعض البطارقة فلكمته لكمة فى صده، فوقع ميتا، وأخذت منه الحسام وجعلت تضرب فى القوم يمينا وشمالا، والروم تفسح لها، وقد هالهم مقالها».

فإذا كانت حركة القتال فى السير الشعبية تتأرجح بين القتال والمهادنة، وبين السم والحرب، فإن المغامرات النسائية مع أبطال الجيش المناوئ تعد بابا من أبواب الحصول على السلم والاسترخاء ولو لمدة وجيزة. فإذا لم تتحقق المغامرة من تلقاء نفسها، سعى إليها للوصول إلى نوع من المهادنة التى يخمد معها ضجيج السلاح.

ومن هنا يمكننا أن نقول إن حب البطلة لبطل من أبطال الجيش المعارض، أو زواجها منه، يعد المعادل للسلم بين المتحاربين.

وهكذا وضعت القناصة السلاح عندما استسلمت لعبد الوهاب، وكان الاستسلام يحمل فى طياته السلام.

وكانت زنانير نموذجا للمرأة البطل، ويؤكد هذا أنها كانت قائدة جيشها الرومى. ولهذا فإن السيرة أفسحت المجال لوصف معاركها ضد العرب، فأشادت ببطولتها وهى تمتطى صهوة جوادها، وتتمنطق بالسيف، وتلف وتدور بين المحاربين. ولكن السيرة لم تغفل فى الوقت نفسه أن تذكر كفاءتها الأنثوية، وأن تشير إلى كل مالديها

من وسائل إغراء. ولم يكن حب زنانير للؤلؤ مدفوعا بمكيدة أو صراع،بل كان حبا خالصا. وكان كلما اختفى عنها لؤلؤ سعت فى البحث عنه، إذ لم تكن تشعر بالاطمئنان، إلا عندما يكون بجوارها، ليقينها أنه صادق فى حبها كذلك.

وكان من الطبيعى بعد تأكيد السيرة لموضوع الحب بين زنانير ولؤلؤ على هذا النحو، أن تعود فتقلص من دور زنانير البطولى بالتدريج، تمهيدا لزواجها من لؤلؤ. إذ كان يعنى زواجها من لؤلؤ البطل العربى، الإنتماء إلى قومه فينتفى عند ذلك الدافع إلى الحرب.

ولم تعشق الجازية أو سعدى رجلا بعينه من القوم المحاربين لقومها، ولكن السيرة لم تسقط من تقديرها إبراز الدور الأنثوى لكل من الجازية وسعدى، الذى يمكن أن يؤدى إلى السلام إذا ما تزوجتا بأحد أبطال الطرف المناوئ. ولما كان هدف السيرة أن تظل الأطراف متصارعة إلى ما لا نهاية، فإن هذا الزواج النفعى لم يتم قط. وعندما قررت سعدى فى النهاية أن تتزوج، سألت عن الرجل الذى قتل دياب بن غانم أباه، فلما توصلت إليه تزوجت به، وبذلك تضاعف الدافع وراء الانتقام من دياب بن غانم، فهو قد قتل أباها مرة، وقتل والد زوجها مرة أخرى.

على أننا نتساءل بعد ذلك: وما الضرورة فى أن تكون المرأة حاملة للسلاح، أو على الأقل محرضة على حمله، إذا كانت شخصيتها تمهد لقصة عشق، ولإيقاع الرجال فى شراكها؟ ونحن نرى أن

مثل هذه الشخصية النسائية تخدم السيرة فى جانبين:

الجانب الأول: أنها تخدم البناء الكلى للسيرة بوصفها مجموعة من الأفعال البطولية المشتركة بين الأبطال فى سبيل الوصول إلى هدف محقق.

والجانب الثانى: أن السيرة تعكس، من هذه الزاوية، وضعا اجتماعيا، وهو أن بطولة المرأة البطل تخدم شهرة الرجل البطل وتؤكد وجوده.

ولهذا فإننا نتساءل بعد ذلك: ولماذا لم يتحقق هذان الجانبان، الجانب الأنثوى والجانب البطولى، فى الأميرة ذات الهمة؟ وبتعبير آخر: لماذا أغفلت السيرة عن عمد الدور الأنثوى للأميرة ذات الهمة، إذا علمنا أنها لم تتزوج ابن عمها بمحض إرادتها، ثم أنها لم تخص من بعد ذلك أى تجربة عاطفية، بل لم تكن قط موضوع إغراء بأى شكل من الأشكال؟

والجواب عن ذلك هو أن النماذج الثلاثة الأولى للمرأة البطل، تخدم السيرة على المستوى الجزئى، فى حين أن بناء شخصية ذات الهمة هو بعينه بناء السيرة، كما أن قصتها قصة السيرة.

فسيرة الأميرة ذات الهمة تهدف إلى تحرير شعب من قيود الماضى التى ما تزال تكبله وتعوقه عن التقدم، كما تهدف إلى تحريره من قيود الحاضر على المستويين السياسى والاجتماعى. والماضى يرمز إليه فى السيرة بالمكان القديم بما فيه من مواضعات بالية ما تزال تفرض

نفسها على الفرد والمجتمع. وعندما يعجز الإنسان عن تغيير المواضعات فى إطار المكان القديم، فإنه يهجر المكان الذى يضيق به إلى مكان آخر يمكن أن يستوعب المتغيرات الجديدة. وهذا المكان القديم نفسه يحتضن الزمن القديم بأحداث القديمة التى أكدت هذه المواضعات،ولهذا فإن الانتقال منه يعنى البدء مع زمن جديد فى مكان جديد.

وفى هذا يتفق بناء شخصية الأميرة ذات الهمة مع الهيكل العام للسيرة. فالأميرة ذات الهمة وقع عليها الظلم حتى من قبل أن تولد. ومن ثم فقد سميت فاطمة بنت مظلوم. ولم يكن السبب فى هذا الظلم سوى تلك المواضعات الاجتماعية البالية.

ولهذا كان يتحتم على ذات الهمة أن تكون ممتلكة لا على المواصفات البطولية فحسب، إن هى شاءت أن ترفع عن نفسها هذا الضيم الذى لحقها منذ نعومة أظافرها، عندما أبعدت عن أهلها، ثم عندما تزوجت كرها من ابن عمها ظالم، ثم عندما أراد ابن عمها أن يلصق بها تهمة العار. ولكن ذات الهمة ببطولتها الجسدية والمعنوية استطاعت أن تتغلب على هذه المصاعب جميعا، وأبت على نفسها بعد ذلك أن تبقى فى المكان القديم ومع العقول البالية التى تتحكم فيه، فهجرت هذا المكان إلى مكان جديد تبدأ فيه حياة جديدة وتاريخا جديدا. وعندما قررت الجماعة أن تصاحبها، كان هذا يعنى أن الجماعة كانت تعيش موقفها، وكانت تطمح مثلها فى حياة جديدة.

ومن أجل هذا توجت فاطمة بنت مظلوم أميرة على الجماعة تحت اسم الأميرة ذات الهمة. وكان من الطبيعى أن تصبح ذات الهمة بمثابة التابو بالنسبة إلى الجماعة بمعنى أنها لا تصبح موضوعا لإغراء جنسى، لا من ناحيتها ولا من ناحية أى فرد من الجماعة، ذلك أن مافى المرأة من إغراء قد يكون دافعا إلى المهادنة أو إلى الاستسلام. ولايجوز أن يحدث هذا عندما يكون البطل الأكبر نفسه مسؤولا عن صنع تاريخ قومه.

هذا بالنسبه لموقف القبيلة من الماضى، أما بالنسبة لموقفها من الحاضر، فلم يكن الحاضر أسهل فى تحريكه لصالح القبيلة من الماضى. ففى هذا الموقف الجديد واجهت قبيلة بنى كلاب عقبتين كؤودين لم يكن من السهل تخطيهما إلا بالبطولة وحدها. أما العقبة الأولى فقد رمز لها بمنطقة الثغور التى تعد منطقة عبور للقوتين المتعاديتين: العرب والروم. وقد كان هدف جيش بنى كلاب بقيادة ذات الهمة تحطيم هذه المنطقة لكى يتمكنوا من العبور منها إلى القسطنطينية. أى أن منطقة الثغور كانت بمثابة الحاجز بين تاريخين، ماضٍ هجر ومستقبل يسعى إليه. فإذا أخفق الجيش العربى فى تحطيم هذه الثغور، فقد يكون فى هذا الإخفاق ارتداد للماضى.

وأما العقبة الثانية فهى عقبة اجتماعية دينية أخلاقية، وقد تجسدت هذه العقبة فى شخصية مصنوعة، إذ لم يكن من السهل إيجاد نظير تاريخى لها، هى شخصية عقبة. فعقبة كان منافقا فى الدين ومنافقا

فى وطنيته. وقد كان يتقن النفاق إلى درجة أنه استطاع على الرغم من نفاقه ومفاسده، أن يتغلغل فى قصور الخلفاء، وأن يكسب ثقة رجال الدين، ولم يكن يتبدى على حقيقته إلا لقبيلة بنى كلاب وأبطالها. ولهذا فإن عقبة لم يكن أقل منعة من منطقة الثغور بالنسبة لجيش بنى كلاب. وهنا تتحدد رسالة بنى كلاب المستقبلية، وهى القضاء على عدو خارجى يتهدد البلاد من الخارج، وعلى عدو داخلى يتهدد البلاد من الداخل.

وبناء على ذلك يمكننا أن نربط بين المعوقات فى حياة ذات الهمة وطموحاتها، وكذلك المعوقات فى حياة الجماعة وطموحاتها، على النحو الآتى:

موقف سابق	ذات الهمة	موقف لاحق
١ ـ تهديد المكان (المكان القديم)	١ ـ الوعى الجديد.	١ ـ منطقة الثغور تمثل حائلاً دون التقدم.
٢ ـ تهديد اجتماعى (النظام القبلى المتسلط)	٢ ـ ثورة على الظلم.	٢ ـ تهديد حضارى (صراع الإسلام والمسيحية).
٣ ـ تهديد حضارى: (التعبير عن الجديد والانحسار	٣ ـ فك القيود	٣ ـ انتصار شعبى (الجماعة ضد الفرد المتسلط)

		وراء النظام الفكرى القديم)	
٤ ـ المكان القديم يبقى على ماهو عليه	٤ ـ الرحيل من المكان القديم	٤ ـ ثورة شعبية (ضد العدو فى الداخل والخارج فى المكان الجديد)	

وهكذا واكبت حركات تحرير الفرد حركات تحرير الجماعة على أن السؤال الذى يثار الآن هو: لماذا أصرت السيرة على أن تسند الزعامة البطولية إلى امرأة، وأن تجعل الرجال تحت قيادتها، يأتمرون بأمرها؟ ألم يكن من الممكن أن تستمر أحداث السيرة على نحو ماهى عليه مع الاحتفاظ بالزعامة البطولية للرجل، كما هو الحال فى السير الأخرى؟

وربما استطعنا أن نجيب عن هذه التساؤلات من خلال مقارنتنا بين مشكلة الأميرة ذات الهمة ومشكلة عنترة. والسبب فى اختيار شخصية عنترة بصفه خاصة للمقارنة فى هذا المجال، هو أن عنترة يمثل الوجه الآخر لمشكلة ذات الهمة مع شئ من المفارقة الشكلية. فمشكلة عنترة هى الزواج من ابنة عمه عبلة، فى حين أن مشكلة ذات الهمة هى ألا تتزوج من ابن عمها. إن الفعلين مختلفان، ولكن الهدف يكاد يكون واحدا، إذ أن كلا منهما كان يهدف من وراء تحقيق الفعل الذى يعنيه، تأكيد وجوده وذاتيته.

ولكن هناك فرقا بين تأكيد البطولة وتأكيد الحق. حقا إن عنترة كان يهدف إلى انتزاع حقه من المغتصبين له، ولكنه ما كان له أن يسترد هذا الحق بدون أفعاله البطولية، فأفعاله البطولية هى التى أرغمت الجماعة على الاعتراف بحقه، فى حين أن ذات الهمة حصلت على حقها أولا، ثم اكتملت بطولتها التى ألمحت إليها السيرة منذ البداية، وذلك فيما بعد، عندما وهبت نفسها للجهاد فى سبيل الدين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن عنترة لم تنصبه الجماعة بطلا لها بعد أن أثبت بطولته بكفاءة، فى حين أن ذات الهمة نصبت قائدة لجيش بنى كلاب بمجرد أن تحررت من عبودية الظلم. فكأن الجماعة نفسها قد تحررت بتحررها، ولهذا خرجت معها لتبدأ رحلة الجهاد تحت قيادتها.

إن البطل الأول فى السيرة لابد أن يكون له قضية يدافع عنها، ومن أجلها يقوم بأعمال البطولة. وهذا القضية لابد أن تكون من الشمول بحيث تتسع لتمثل قضية جميعة، لاقضية فردية. وقد أسندت السير العربية المختلفة إلى البطل الأول فى كل منها قضية تختلف عن قضايا الأبطال الآخرين. وإذا كانت قضية تحرير الرجل قد شغلت بها سيرة عنترة، فقد كان لابد أن تعنى سيرة أخرى، وبخاصة فى عصر الوعى الحضارى الذى عاشه العرب فى تلك الحقبة، بقضية تحرير المرأة.

وعندما تتحرر المرأة من العبودية، وتكسر القيد الاجتماعى المكبل لها، فإنها بذلك تكون قد كسرت القيد النفسى بداخلها، وهو ذلك القيد الذى يحول فى كثير من الأحيان بين المرء وفعل الخير للصالح العام.

وقد كسرت ذات الهمة القيد الاجتماعى والقيد النفسى معا، ولهذا أصبحت مهيأة لفعل الخير للمصلحة العامة، ولهذا أيضا كانت صالحة لأن تكون البطل الأول فى السيرة، وأن تكون الجيوش تحت إمرتها.

هل يمكننا بعد ذلك أن نقول إن الأميرة ذات الهمة نموذج لامرأة حديثة فى سيرة قديمة؟ فالمرأة الحديثة لاتكتفى بتحقيق رغبات مؤقتة مدفوعة بدوافع عاطفية، بل أصبحت تهدف إلى تحقيق رغبات ممتدة فى الحيز الزمنى، بحيث يمكن أن تستوعب حياتها كلها. وعندما تكون الرغبات ممتدة على هذا النحو فإنها تتجاوز الهدف القريب إلى الهدف البعيد، كما أنها تصبح قيما وليست مجرد رغبات، والفرق بين القيمة والرغبة أن الأولى يسعى إليها بناء على أسباب خارجية موجودة من قبل، فى حين أن الثانية يسعى إليها بناء على أسباب داخلية. ولهذا فإن القيمة تهم الجميع ويسعى إليها الجميع، فى حين أن الرغبة لاتتجاوز حدود الفرد، إلا إذا امتدت وتحولت إلى قيمة.

ونخلص من هذا إلى أن الأدب الشعبى بعامة عندما يقدم الصورة

الكاملة للبطل، فإنه يقدمها من خلال المراحل الثلاث المعروفة لدى الأنثروبولوجيين وعلماء النفس الجمعى تحت عنوان «طقوس العبور»، وهذه المراحل هى مرحلة الابتعاد عن الأهل، ومرحلة النضج، ثم مرحلة العودة. وغالبا ماتقتحم المرأة عالم البطل لتؤكد بطولته أو تكون سببا فى شهرته.

أما عندما تسند البطولة الأولى إلى المرأة فإنها تمر بهذه المراحل كذلك، ولكنها لن تجد الرجل الذى يشهرها لحسابها، ولهذا فهى تخوض المغامرة الأولى بمفردها، وبمعزل عن الناس، ولكنها بمجرد أن تنجح فيها، تلتف حولها الجماعة، لأن شخصيتها تكون قد تهيأت لأن تستوعب الأنا والآخر، كما تكون قد جمعت بين الاستقلال الذاتى والوعى الجماعى. وربما كانت اللامركزية التى حققتها ذات الهمة مع جماعتها فى المكان الجديد، بعيدا عن متواضعات نظام الحكم آنذاك ـ ربما كانت تعبيرا رمزيا عن رغبة الجماعة فى الالتفاف دائما حول قيم إنسانية واجتماعية. والمكان الجديد إنما اختارته ذات الهمة قبل أن يختاره أى إنسان آخر فى السيرة. وقد أكدت بذلك أنه لاداعى للمرأة أن تعيش حبيسة المكان مادامت قد وصلت إلى درجة من الوعى أوصلتها إلى التحرير الكلى من كل مايكبلها.